﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾ [الحجر: 2]

العلاقة بين كون القرآن كتاب الله حقًّا، وندمُ الكافرين على عدم الإيمانِ به وتصديقه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا وصف اللّهُ تعالى هذا القرآنَ بما وصفَه من العظمةِ، وأنَّه الكاملُ في معانيه وفي الإبانةِ لجميع المقاصدِ؛ شرع في بيان ندمِ الكافرين بهذا القرآنِ لِعدمِ الانتفاعِ به وتركِ الانقيادِ لأحكامِه، فقال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَوَدُّ﴾: الود: التَّمني، وهو تقدير المعنى في النفس للاستمتاع، وإظهار ميل الطباع له، وفيه اشتراك بين التمني والحب، وهو هنا للتمني[1]، وأصلُ (وَدَّ): تَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةٍ، ودِدْتُه: أَحْبَبْتُه، ووَدِدْتُ أنَّ ذاكَ كانَ؛ إذا تمنَّيْتُه، أَوَدُّ فيهما جَميعًا، وفي الـمَحَبَّةِ الوُدُّ، وفي التَّمَنّي الوَدادَةُ[2]؛ لأنَّ التَّمنّي هو تَشهّي حُصولِ ما تَوَدُّهُ، والوُدُّ يُستَعمَلُ كِنايةً عن السَّعْيِ لحصولِ الشَّيءِ المَوْدودِ؛ لأنَّ الشَّيءَ الـمَحبوبَ لا يَمْنَعُ من تَحْصيلِهِ إلّا مانِعٌ قاهِرٌ، فهو لازِمٌ لِلْوُدِّ[3]، والمرادُ بالودِّ في الآية: التَّمنّي المتولِّد منه التَّنديم.

المَعنى الإجماليُّ:

سيَندَمُ الّذين كفروا على عدم إسلامهم، ولات حين مندم

أشار اللّه تعالى بهذه الآية إلى أنَّ المشركين سَيَنْدَمون عندما تنكشف لهم الحقائق؛ فيعرفون أنَّهم على الباطل، وأنَّ المؤمنين على الحقِّ، ويتمَنَّونَ لو كانوا مُسلِمينَ في الدُّنيا، موَحِّدينَ، مُنقادينَ لأمرِ اللّهِ تعالى، وخاضعينَ لأحكامِه، حتَّى ينجوا مِن الخزي والعِقاب[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/11.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 6/75.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/301.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/8، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/524.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التَّعبير بقولِهِ: ﴿رُّبَمَا﴾ في السّياق:

العقل لا يسكن إلى الكفر، ولا يطمئن إليه؛ إذ هو منافٍ لمقتضاه

حرف ﴿رُّبَمَا﴾ لم يوجد في القرآن إلّا في هذه الآية، وقد يُسْأَلُ، فيقال: ﴿رُّبَمَا﴾ للتَّقليل، وهي تفيد الظَّنَّ، وتمنّي الكافرِ الإسلامَ يكثرُ ويتَّصلُ، وهو مقطوعٌ به، فلا يُشاكِلُهُ ﴿رُّبَمَا﴾، كما أنَّ الآيةَ على معنى الوعيد، وإنَّما يناسب الوعيدَ تكثيرُ ما يُتواعَدُ به؟ وجوابُه أنَّه جاء على المبالغة، بمعنى: أنَّ الإسلامَ لو كانوا يودّونه مرَّةً واحدةً؛ لكانت المسارعة إلى الدُّخولِ فيه عند الإمكان واجبة، فكيف والنَّدم على عدم الدخولِ في الإسلامِ يتَّصل، ويكثر بتجدُّد الحقيقة وظهورها في كلِّ حينٍ، فيكون مجيء الصّيغة على التَّقليل أبلغَ في التَّهديد على طريق استعارة القليل للكثير بقرينة السياق، ونُزِّل التّضادُّ منزلة المناسبة بينهما، ويكون المرادُ من استعارة القليل للكثير التهكُّمَ بهم وتخويفَهم، أو يقال: لَمّا كان السّياقُ هنا يقتضي التَّكثير؛ كان دخولُ لفظٍ يشعر ظاهره بالتقليل لإيقاظِ السّامعِ بما يعظمُ شأنُه والتَّنبُّه له[1]، فيكون المعنى على المبالغة كذلك، ويحتمل أنْ يكون ﴿رُّبَمَا﴾ للتَّكثير[2]، والمعنى: يودُّ كثيرًا الذين كفروا لو كانوا مسلمين، ولَمّا كان مجيء ﴿رُّبَمَا﴾ على معنى حصولِ ما بعدها وقتًا بعدَ وقتٍ[3]؛ كان المعنى حصولَ ندامة الكافرين وقتًا بعدِ وقتٍ وتكرُّرها منهم في كلِّ آنٍ من آناتِ اليومِ الآخرِ، وأنَّ ذلك من الظُّهور بحيث لا يخفى على أحدٍ، ويؤيِّده مجيء الفعل ﴿يَوَدُّ﴾ بصيغة المضارع كما يأتي.

---

(1) ذكر أكثر هذا الكلام الأزهري في تهذيب اللغة: 15/133، مادّة: (ربّ)، نقلا عن الزّجاج، ونقله عنه ابن منظور في لسان العرب والزبيدي في تاج العروس وغيرهما، وانظر: الواحدي، التفسير البسيط: 12/539، والزمخشري، الكشاف: 2/570، وابن المنير، الانتصاف، حاشية على تفسير الكشاف: 2/569، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/523، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/117، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/11.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/167، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/776.

(3) الراغب، المفردات: (رب)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/64.

نكتة التّعبير بـ﴿يَوَدُّ﴾ في ثنايا الآية الكريمة:

بيان ندامة الكافرين على عدم دخولِهم في الإسلام عندَ ظهور الحقيقة

أفاد التعبيرُ بالودِّ، واقترانُ الودِّ بـ ﴿لَوۡ﴾ تولُّدَ معنى التَّمنّي مجازًا، ولمّا كان التَّمنّي هو طلَبُ الأمرِ المُمْتَنِع الحُصولِ أفادَ التَّعبيرُ تحسُّرَهم على عدم دخولِهم في الإسلام[1]، وبدلًا من أنْ يقول: (يتمنَّى) عُبِّرَ بالودِّ؛ للإيذانِ بشدَّة حبِّهم ورغبتِهم لأنْ يكونوا مسلمين عندَ ظهورِ الحقيقةِ، لِمَا تفيده ﴿لَوۡ﴾ من تقدير غير الواقع واقعًا، فأفاد هذا التركيب حبَّهم الشديد المشوب بالتمنّي لِما لا مَطْمَعَ لهم في أنْ يكونوا مسلمين، ودلَّت ودادتُهم التي بمعنى التَّمنّي على ندامتِهم وتحسُّرهم ولومِ أنفسِهم على عدم دخولِهم في الإسلامِ.

فائدة التَّعبير بصيغة المضارع، في قولِه: ﴿يَوَدُّ﴾:

وعدُ القرآن ووعيده، واقعٌ لا مندوحة عنه

أفاد التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يَوَدُّ﴾ تجدُّدَ حدوث هذا الودِّ، فإنَّه لَمّا صحَّ مجيء الفعل المضارع بعد ﴿رُّبَمَا﴾؛ أفادَ تجدُّدَ حصولِ ودادتِهم واستمرارَها، كلَّما بانت حقيقة الإسلامِ عندَهم في الدُّنيا وفي الآخرة، وفيه إشعارٌ بظهور قوَّة الإسلامِ في المستقبل، ويَحْتَمِلُ أنْ يقال: إنَّ الأصل أنْ يأتيَ الماضي بعد ﴿رُّبَمَا﴾، فيكون مجيء المضارع على خلافِ مقتضى الظاهر، ونكتته؛ إمّا لتنزيل وعدِ القرآن ووعيدِه، وما كان فيه كأنَّه عَيانٌ وواقعٌ للقطع بتحقُّقه، فجرى الكلام فيما لم يكن منه كمجراه في المحقَّق الواقعِ، وإمّا لأجلِ حكايةِ حالِ الكافرين عندَ تمنّيهم أنْ لو كانوا مسلمين، وتصويرِها؛ لتوبيخِهم وللتَّنبيه على سوء عاقبتِهم، ويصلح أنْ يكون للأمرين معًا[2].

بلاغة التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وصلته ﴿كَفَرُواْ﴾:

الكفر سبب الملامة، ومآل الحسرة والنَّدامة

أفاد التَّعبير بالاسم الموصول وصلته بيان سبب بناء الحكم، بمعنى أنَّ كُفرَهم عمومًا أو كفرَهم بالقرآنِ هو سبب ندامتِهم.

---

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 304.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/532، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/569.

سرّ حذفِ ظرف الزّمان، في سياق الآية:

تمنّي الكافر لو كان مسلمًا، عند فوات الأوان، لا يغني عنه شيئا

قولِه: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، وفيه لم يُعيِّن وقتَ ودادتِهم لدخول الإسلامِ وندمِهم على كفرِهم؛ ليفيد العمومَ، فتشملُ تلك الوَدادةُ يومَ القيامةِ أو عند موتهم أو عند معاينةِ حالِهم وحال المسلمين عندَ الحسابِ من الجزاء والثَّواب، أو عند رؤيتهم خروجَ عصاةِ المسلمين من النار، وبالجملةِ فهذه الودادة تكونُ في كلِّ الأحوالِ الَّتي تخطرُ بالبالِ، وتُظهر بطلانَ ما كانوا فيه مِن خلاف الإسلام وانكشاف الأمر لهم، وفيه إشعارٌ بأنَّ الذي منعهم عن الإسلام فوتُ شيء من الدُّنيا، وذهابُ شيء قد طمعوا فيه كما سيأتي[1].

نكتة حذف متعلّق الفعل، في قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾:

الكفرُ بالقرآن، من أشنع أنواعِ الكفر

لَمّا تقدَّم في الآية السابقة ذكرُ الكتاب والقرآن؛ أشْعَرَ أنَّ الكلامَ على تقدير: كفروا بالكتاب الذي هو من الكتبِ المنزَّلة، وكفروا بالقرآن الذي هو علمٌ على الكتابِ الذي نزلَ على رسوله ﷺ، وكفروا بأنَّه من عندِ الله، ونكتة الحذفِ بيان أنَّ الكفرَ صار كالوصفِ اللّازم لهم بكفرِهم المذكور، تعظيمًا لشأنِ الإيمانِ بالقرآن وتهويلًا من الكفرِ به، وتوبيخًا لهم على كفرِهم.

مناسبة ورود الفعل ﴿كَانُواْ﴾ بصيغة الماضي:

القرآن يحثُّ على مراجعةِ العقل، والتَّأنّي قبل إظهارِ الكفرِ

عُبِّرَ بالكون الماضي لِلدَّلالَةِ عَلَى أنَّهُمْ يَوَدّونَ الإسْلامَ بَعْدَ مُضيِّ وقْتٍ كافٍ للتمكُّن من الدخولِ فيه، وفيه تنبيهٌ إلى أنَّهم إذا راجعوا عقولهم؛ أنكروا كفرَهم، وتمنَّوا أنْ لو كانوا مسلمين من أوَّل أمرِهم[2].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿مُسۡلِمِينَ﴾ في السّياق المبين:

لم يَقُلْ: لو كانوا (مؤمنين)؛ للإشعار بأنَّهم تمنَّوا أنْ لو كانوا

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/420، والواحدي، التفسير البسيط: 12/538، والسمعاني، تفسير السمعاني: 3/128، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/64، والشوكاني، فتح القدير: 3/146.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/252، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/11.

مُنْقادِينَ لجميعِ أحكامِ اللّه، ومُذْعِنِينَ لكلِّ أوامرِه، وليس في أمرِ الإيمانِ والتَّصديقِ فقط، وفيه إيذانٌ بأنَّ كفرَهم بالقرآنِ، وبأنَّه من عندِ اللّه إنَّما كان بالجحود بعد ما علموا كونَه من عند اللّه تعالى[1].

الكفرُ بالقرآن، جحودٌ للحقِّ الظّاهر الباهر

سبب إيثار التَّعبير بصيغة الغيبة ﴿لَوۡ كَانُواْ﴾:

قوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، وفيه جيء بالعبارة على لفظ الغَيْبَة، فلم يَقُلْ: (لو كنّا مسلمين)؛ لأنَّهم مخبرٌ عنهم[2]؛ ليفيد أنَّهم مهمَلون، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ - كما سيأتي - وليكون السّياق على نسقٍ واحدٍ في الخطابِ بصيغة الغَيْبَة.

الكافرُ مهمَل حقير، لا وزنَ له عندَ العليم القدير

بلاغة الخبر، في سياق الآية الأغرّ: بمعنى:

قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، هذه الجملة وإنْ كانت خبريَّةً؛ لتفيد ندمَ الّذين كفروا وحسرتَهم، على عدم دخولِهم في الإسلامِ؛ لكنَّها تتضمَّن تهديدًا وتهويلًا للكافرين الّذين لا يتَّبعون دين الإسلام[3]، بما يظهر لهم في المستقبل، من حقّيَّة الإسلام وصوابِه، ولكن بعدَ فواتِ الأوانِ.

حقّيَّة الإسلام، تظهر شيئًا فشيئًا، بعدَ زمنِ نزولِ القرآن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/64.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/570، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/206.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/10.